الأمر

رمز من رموز الأطفال في قصص مسلسلة

رغبة الأستاذ عبد الكامل

كانت والدة جان واقفة أمام صوان الملابس وقد تملكها منذ لحظة سرور عظيم وهي تنعم النظر في تلك الكنوز المكدسة بعناية . كانت تشعر بالراحة والسعادة فابتدأت تغني

وأمسكت بأحد أقمصة جان ، وعندما نشرته أمامها استولى عليها التفكير وسكتت عن الغناء . كانت تقول لنفسها : هذه الملابس الفاخرة ، هذا القميص الصغير المزركش كان بالنسبة إليها منذ سنوات قليلة ثروة طائلة تجعلها في غنى عن الكد والعمل وفي حماها وفلذات أكبادها من ألم الجوع

فحدد للزفاف ميقات معلوم ، وصنع جهاز للعرس رائع جميل ، وأرسلت الدعوات للأهل والأصدقاء . وبدت آيات البشر وأمارات الغبطة على محيا العروسين السعيدين ، فكانا يتنقلان في خفة الطائر المرح من هنا لهناك ، يستعدان لليوم الموعود واليوم المشهود

فتعيش وقتا طويلا في هدوء واطمئنان دون أن تقاسي تلك المشاغل القاسية التي كانت حتى اليوم تهز نفسها هزا عنيفا ، وكأنها خرجت من خطر محيت

نعم . لقد أخرجتها جان ، تلك الفتاة الصغيرة ، بغنائها الساحر من هذه التعاسة ، من ذلك الظلام السحيق . فقد اقتحمت جان طريق المجد بسرعة فائقة حتى بلغت السماء جاذبة وراءها أسرتها

وتمتمت الأم قائلة : ابنتي !

ثم صمتت وقد انتابها فرح عظيم أمام هذه السعادة وكأنها أمام معجزة ، وكل

وفي يوم الزفاف ، وفي الساعة العاشرة تماما سقطت لوسي صريعة قلبها . وفي صمت كصمت القبور ، وسكون كسكون الليل؟ أسلمت تلك المرأة الجهنمية روحها لبارئها ؛ وما نسيت أن تستغفر الله لتلك التي غدرت بها وتزوجت !

عبد الوهاب محمد

هذه السنين الأخيرة لم تكن فى الواقع إلا سلسلة لا تنقطع من الهجرات ؛ لقد تفتح أمامهم عالم منير ، فهجرت الحجرة الضيقة المظلمة ، والشارع الصغير القذر الذى كانت تقطن فيه حتى ذلك الوقت حيث أخرجت إلى الدنيا أولادها وحيث رأتهم يشبون ويخطون بخطواتهم الصغيرة . كذلك استطاعت أن تهجر تلك المدينة الصغيرة التعسة ، حيث كانت تحيا حياة خاملة بائسة سجينة الهم واليأس ؛ وبفضل ابنتها وغنائها العجيب دخلت هذه الدنيا الباسمة خجولة طامعة وكأنها فى حلم . كانت تقول لنفسها :

أيكافئ الله هذه الأم كما كافأ ابنتها ؟ أيمكن أن يغمرها على الدوام بفضله وإحسانه ؟ لقد حصلت على أكثر مما كانت تجرؤ أن تأمله . حصلت أولا على النجاح ثم على المجد ، ولم تحصل على المال الوفير فحسب ، بل إن أوربا بأسرها تتكلم عن ابنتها وأمريكا تستدعيها

وضحكت الأم والقميص ذو الدنتلا البيضاء لا يزال بين يديها . إن ابنتها جان ترتدى أفخر الملابس كإحدى الأميرات ، وتحلى رقبتها الصغيرة الجواهر التى لا يعرفها إلا الملكات

وتنهدت الأم من أعماق نفسها وابتدأت تغنى الأغنية الرائعة التى نالت بها ابنتها النجاح الدرى فى الليلة السابقة فى دار الأوبرا : فقد كانت الفاجعة تهتز من التصفيق العاصف . كانت الأم تحفظ عن ظهر قلب كل جزء من تلك الأغنية ، فقد سمعتها مئات المرات عندما كانت جان تحفظها بينما هى بجانبها تنصت إليها . وها هى ذى الآن تغنى تلك الأغنية ؛ على أن ذلك لم يدم طويلا إذ قرع باب الغرفة قارع ...

فقالت : من القادم ؟ ادخل !

فأجاب الأستاذ برجير وهو يدخل :

— ها أنذا !

ونظر الرجل حوله دهشا ثم قال :

أين إذن الآنسة جان ؟

فقالت : ليست هنا

فقال : ليست هنا ! آه ! يا لأولئك الفاتنات العظيمات ! ونظر بعينيه وقد بدا على وجهه ما يقصد ثم قال :

إنهن يغلقن أبوابهن فى وجه المدير الفنى دون أى حرج

فنظرت إليه الأم دون أن تفهم ما يريد وقالت :

أؤكد لك يا أستاذ برجير أن ابنتى ليست بالمنزل

فقال الرجل ساخرا :

إذن من التى كانت تغنى منذ لحظة ؟

فقالت : لم تكن جان ؛ وضحكت الأم ثم أضافت : أنا التى كنت أغنى

وبدا على الأستاذ برجير الدهش وقال وهو يهز رأسه :

أنت ؟ إنى لا أستطيع أن أصدقك !

وأكملت الأم له ما قالت وقد بدا عليها الانفعال

قال الأستاذ برجير :

إنى لا أحب منها أن تغلق الباب فى وجهى إذا لم تكن تريد أن ترانى فى هذه اللحظة . إنى مدير فنى بلغت الشيخوخة فأنا أعرف هذه النزوات الغريبة ؛ إنى أعرف ذلك الصوت الذى سمعته ، وعلى ذلك لا يستطيع أحد أن يخدعنى

فنظرت إليه الأم بعينيها الهادئتين وقالت ببساطة :

إن جان نست بالمنزل

وفقد الرجل عناده وصمت مفكرا ثم قال دون تردد :

إنى لم أسمعك قط تغنين . وكان يجب أن أسمعك يوما ما مادمت كثير التردد على هذا المنزل

فقلت : إنى لم أغن منذ طويل ؛ وفى الأعوام التى كانت تدرس فيها جان كنت أقنع بالإصغاء إليها . كان كل اهتمامى منصبا على هذه الفتاة وعلى باقى أفراد الأسرة فلم يكن عندى الوقت الكافى لأغنى . وقديما عندما كنت أعانى ألم الفقر كنت كثيرا ما أغنى لأنسى مشاغلى وهمومى

وابتسمت الأم قليلا ثم قالت :

نعم . فى ذلك الوقت كنت أسهر حتى الآن . كنت أغنى لأجلب النوم إلى عيون أطفالى . وكنت أغنى أثناء عملى الماضى وأنا جالسة أمام طست الغسيل الساعات الطوال

وضحكت ثانية وقد بدت على وجهها علائم التفكير وهى تنظر إلى قميص جان

كان مدير المسرح أثناء ذلك يرمقها بعينه ثم قال بصوت منخفض :

حسن ! آسف لأنى لم أحظ بمعرفتك وسماع صوتك . ولو حدث ذلك لما قضيت وقتا طويلا من حياتك أمام طست الغسيل

كان الرجل يمتحن تلك المرأة التى لفتها الشيخوخة فرآها صغيرة الجسم تشبع فى وجهها تجعدات خفيفة . دابلة اللون . ولكن عينيها الدابلتين كانتا تنبئان بأن هناك نارا هادئة تستمر فى جوفها . فهز كتفيه وقال وهو يخرج من الغرفة

يا للخسارة !

***

بعد ساعة مما حدث كانت جان جالسة أمام المرآة ووراءها أمها تصفف شعرها وتحدثها عن الحفلة التى ستذهبان إليها

معا . قالت الأم :

سوف يكون هناك أرشيدوق وعدد من الأمراء . ما أعظم ذلك !

وألقت الأم نظرة إلى جان تملكها السرور الغامر عندما رأت المنضدة البيضاء كالعاج تحيط كتفي ابنتها بصورة فاتنة . كانت تنعم النظر في وجه ابنتها الدقيق في المرآة وقد بدت عليها سعادة تمتزج بها حشونة خفيفة . كانت ترى عينيها السوداوين تلمعان تحت جبينها الأبيض الصقيل . كانت تتملكها السعادة وهي تشعر بحرارة شعر جان المتعمش الحي تحت أناملها . وفجأة غمرها السرور والاعتراف بالجميل فانتدأت تغني ثانية بينما كانت جوزجانسة كفاتلة صغيرة نصبت للغناء أمهاوهي تصفق لأمرها

ودخلت الخادمة فقالت :

إن رئيس فرقة العزف يريد مقابلة الآنسة

فقالت جان : فلينتظر !

وعندئذ صرخ رئيس فرقة العزف من الخارج قائلا :

كفي عن الغناء ياجان . لماذا تتعبين نفسك وتغنين دون وزن ؟!

فانقطعت الأم عن الغناء . ولم تجب جان وسمع صوت رئيس فرقة العزف من الخارج وهو يقول :

ومع ذلك فهذا غناء رائع ياجان . عندما أسمع أي صوت من ذلك لا أستطيع أن أمتنع نهسي من القول بأن هذا رائع

ورأت الأم في المرآة تغيرا على وجه جان

وقال رئيس فرقة العزف من الغرفة المجاورة وهو دهش :

لماذا لا تجيبيني !

فقالت جان غاضبة وقد نفد صبرها :

أرجوك اتركني وشأني . إنك تعرف جيدا أنني لا أغني

واستمرت ناظرة إلى الأرض دون أن ترفع ناظريها

وأثناء هذه الثواني ظهر بين المرأتين شيء لا يمكن تفسيره . ظهر وكأن بين الاثنتين فاصلا سميكا . وفي الوقت نفسه اندمجتا فوق جمع بينهما . ونهضت الأم عملها بهدوء وخرجت من الغرفة في صمت

وفي المساء جلست الأم في القاعة الفاخرة التي سيدوي بين أرجائها صوت ابنتها . وقريبا من الساعة كان الحديث يدور بين المجتمعين في غرفة مضاءة بالأنوار اللامعة حيث جلست جان تحيط بها الحاضرون يتمتعون بها بنسيم التحمس والقلق الرحيم

كانت الأم جالسة مرتدية معطفا أسود يحيط بها سورة تحجز بينها وبين . كانت تستغيث كبار القوم الذين كانوا ينحنون

أمامها تحية وإجلالا ومد لها الأرشيدوق يده وعلى فمه ابتسامة غامضة فردت عليه تحيته . وقال لها أحد القادمين : كيف لا نحسدين على أن لك بنتا كابنتك . ولقد سئلت خمس مرات أو ستا : ألا تغمرك السعادة الآن ؟ لقد كان هذا الإحساس بالمجد يملؤها بالسعادة . كان كل ما تأمله أن تمتلئ القاعة بالسامعين وكانت تقول لنفسها : هل ستفوز جان بنجاح كبير ؟ وكانت كلما خطرت ببالها هذه الفكرة اضطربت قليلا لأنها كانت ترغب رغبة حارة فى أن ترى نجاح ابنتها عظيما رائعا

بيد أن اضطرابا غريبا كان يزداد تدريجيا فى أعماق نفسها . كانت تتردد على سمعها كدقات الساعة كلمة المدير الفنى حين قال عنها « يا للخسارة ! » وقول رئيس فرقة العزف « هذا رائع ! »

وازدحمت القاعة بالوافدين وامتلأت على سمتها بالسيدات الجميلات يزين أكتافهن الفراء الفاخر مرتديات ملابس غالية الثمن . واقتربت جان من البيان بينما كانت أمها تتبعها بنظراتها . كانت جان رشيقة متكبرة تتوجها فتنة الشباب . وكان شعرها الأسود ورأسها الصغير ينعكسان على الواجهة المرمرية البيضاء فيبدو منظرها جميلا ساحرا . وفجأة أحست الأم أنها هى التى على المسرح وليست ابنتها . رأت أمامها فتاة صغيرة فى ملابسها الرائعة تروح وتجئ غير هيابة ومع ذلك فهى هى نفسها

وتمتمت الأم قائلة : « شبابى ! » وكأن شيئا فى داخلها قد تمزق وتحطم إلى ألف قطعة

* * *

وارتفع صوت جان واضحا كيوم من أيام الربيع ، منسجما حارا كضوء الشمس وكانت الأم تصغى إلى صوت ابنتها بانتباه أكثر من المعتاد وقالت لنفسها « هى أنا هى أنا » وانتابتها رعشة حين أحست ذلك الاحساس الغريب وهو أنها تسمع نفسها . فاضطربت أفكارها وأصبح لا يرن فى أذنها غير تلك الكلمة « يا للخسارة! »

رأت الأم أمام عينيها غرفة صغيرة مظلمة ينبعث منها الهواء الفاسد المختوق الرطب ورأت أطفالا صغارا . رأت أطفالها بين الوسائد القذرة يصرخون وينادون أمهم باكين طالبين أن تدلهم . رأت نفسها منحنية تحت فرن أسود يلفح وجهها بالبخار المحرق المتصاعد من الطعام القذر الذى تطهيه . رأت نفسها راكعة على ركبتيها تنظف أرض الغرفة وقد أكل الصابون أصابعها . رأت نفسها واقفة على حافة النهر رافعة طرف ردائها تغسل الملابس بالماء القذر الموحل وهى تتنفض من البرد القارس .

رأت كل ذلك فرددت كلمة المدير الفنى « لو كنت مررت من هنـاك » ولـكن لم يمر أحد . نعم لم تسمع الطروف فلم يسمعها أحد تغنى كما تمنت لابنتها بل كما كتشفت موهبتها

كان اضطرابها يزداد فتشعر بأنها فى حاجة لأن تتعلق بمقعدها . قالت لنفسها : حياتى . حياتى . قالت هذه الكلمة بقوة لدرجة أنها التفتت حولها لترى إن كان قد سمعها أحد . إن ما يبحث عنه هذا الجمع الحاشد بحماس كبير ويعجب به بحرارة كانت تملكه هذه المرأة العجوز ولـكنها جهلته بل أضاعته . نعم أضاعته أثناء بؤس حياتها المضطربة . أضاعته من أجل أن تقوم بأعمالها الحقيرة . أضاعت نفسها وسط بخار الأطباق النتنة . أما موسيقى نفسها الرائعة ، تلك الموسـيقى العظيمة التى كان سيسمعها الناس بإعجاب كبير فقد بعثرتهـا على أرض الغرفة القذرة وبين أمواج النهر الآمين الموحلة

ورفعت نظرها إلى ابنتها فرأتهـا يعلو رأسها أكليل المجد الذى أحرزته بقوة صوتها الجميل وبدت كأنها مغترة بفنها وعندئذ قالت الأم لنفسها :

هل هى سلبتنى حياتى ؟ هل هى انتزعت حياتى بتلك الشرارة القاسـية التى يهبهـا الأبناء نحو أمهاتهم ؟ أم هى قد ردت إلى ما افتقدته وحفظت لى ما لم أهتم بحفظه ، وهى الآن تهبنى من جديد حياة محطمة من أجل أن تسعدنى ؟

وفجأة أحست بأن عاملا خارقا قد ربطها بابنتها التى كانت تغنى أمامها برباط وثيق . وفى الوقت نفسه شعرت بأن بينها وبين ابنتها هوة سحيقة . وعندما دوى التصفيق فى القـاعة كنهر حطم ما أمامه من سدود ، تملكت الأم عاطفة قوية فاندفعت تصفق

وأثناء ذلك جاء الأرشـيدوق وانحنى أمامها قائلا :

إننى أعرف جيدا ما يجول فى هذه اللحظة فى قلبك كأم

ولـكنه لم يكن يعرف !

على كامل